الفصل الثالث

تحليلُ المُحتوَى

● المحاور:

إن المحور الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب هو الأخبار والقصص والحكايات التى تصور مواقف مختلفة فى حياة أشخاص تاريخيين، أو مجهولين أو مُخْتَرَعين. وهذا المحور الرئيسى يضم فى إطاره محاور جزئية، يمكن أن نختزل مفهوم كل محور فى «الموضوع» و «الهدف» أى المضمون الذى سيبدو بمثابة طريقة مُيَسَّرة للتعريف الموضوعى للكتاب، على أن نعود إليه على المستوى الصياغى، أو أسلوب بناء كل نوع. وقد عرضنا من قبل لطريقة المؤلف فى تقسيم أبواب كتابه، ورأينا ما فيها من خلطٍ فى أسس التقسيم، وتداخُل بين الأنواع، وهذا يعنى أن المحاور التى نجمع مفرداتها الآن، ونحاول أن نستخلص لها صورة وهدفًا سنجدها متفرقة الأجزاء -أو المفردات- على مساحة الكتاب، وليست مجموعة فى باب واحد، ومن هنا جاءت أهمية ما قمنا به من إعادة الترتيب.

ويمكن أن نحصر هذه المحاور فيما يأتى:

١- الأخبار والشخصيات التاريخية.

٢- صورة الحياة الاجتماعية.

٣- الحكاية الشعبية.

٤- القصص الوعظية.

٥- قصص وأخبار آل البيت.

٦- القصص التعليمية.

وهذا الترتيب يتدرج تنازلياً مع الجانب الكمى لكل موضوع، كما أن التوزيع قام على التغليب، فقد يكون الخبر عن رجل من آل البيت، ولكنه يُصَوِّرُ سلوكًا اجتماعياً معينًا، وهنا سيُحْدِسُ القارئ أين يقع مركز الاهتمام فى هذا الخبر.

أولاً: الأخبار والشخصيات التاريخية:

من المتوقع أن يفوز الخلفاء، ومَنْ يدور فى فلكهم من الوزراء والكُتَّاب والقادة بأكبر نصيب، لأن التاريخ المدوَّنَ يهتم بأخبارهم، ومع هذا لا نجد ما كُتب حول هؤلاء تكرارًا لما نجده فى كتب التاريخ، من جانبين: أن القاضى التَّنُوخِىَّ فى اختيار مادة كتابه، حين ينتقى من حياة شخصية شهيرة كالحَجَّاج، أو المأمون مثلاً، فإنه يختار «المواقف» التى تدل على طبيعة الشخص، وليس «الأعمال» التى يسارع المؤرخون إلى تدوينها، ومن هنا تكون اختياراته متوغلة فى التفاصيل التى قد لا يلتفتُ إليها المؤرِّخ عادة. وإنه كثيرًا ما يُعْنَى بأشخاص لهم وجود تاريخى، ولمواقف حياتهم دلالات تاريخية إنسانية وحضارية، ولكنهم لم يبلغوا من الشُهْرة بحيث يهتم بهم المؤرخون، ومع هذا لا يمكننا أن نستوعب طبيعة المرحلة وظروفها دون أن نضع هذه المواقف العابرةَ تحت الضوء.

خلفاءُ بنى العباس ورجال دولتهم هم الأكثر ظهورًا، ولا يحتاج هذا إلى تعليل، فإنهم الأقرب عهدًا، والأطول زمنًا، والأزمات فى عصرهم أكثر، وسنجد القليل عن عصر بنى أمية، وما دمنا بصدد شدة تنفرج، ومحنة تنزل وتنقشع، فإن الحجاج بن يوسف الثقفى يحظى وحده بنصف ما كتب عن العصر الأموى، والأخبار التى تدور حول الحجاج تصور قسوته، وجو الإرهاب الذى ساد فى عصره، حتى صار الإقبال على العبادة مظنة الاتهام بقول الخوارج وسلوكهم، يقول أحد المحبوسين شارحًا تهمته: «جاء العريِّف، فتبرأ منى، وقال: إن هذا كثير الصوم والصلاة، وأخاف أنه يرى رأى الخوارج»!! وسجْنُ الحجاج كان يسمى الديماس، ومعناه: الحفرة العميقة لا ينفذ إليها الضوء. هذا هو القول «الجاهز» عن الحَجَّاج، ولكن أخبارًا أخرى تُدخل بعض التفاصيل التى تتحفظ نسبياً على هذه الصورة القاسية الجافية. فهذا الشعبى يخرج مع ابن الأشْعَث على الحَجَّاج وحين

تنجلى الفتنة يقف أمام الحجاج مُقراً بذنبه، معتذراً، وهنا يقول لجلسائه: هذا عامر، ضرب وجوهنا بسيفه وأتانا يعتذر بالباطل، ردوا عليه عطاءه!!. وحين يُساق إليه أسرى فتنة ابن الأشْعَث يأمر بقتل طائفة منهم، وتقدم رجل قبل أن يضرب عنقه فقال: يا حجاج، والله لئن كنا أسأنا فى الفعل، فما أحْسَنْتَ فى العقوبة، وإن كنا لؤمنْا فى الجناية، فما كَرُمْتَ فى العفو. فقال: رُدُّوه. فَرُدَّ. فقال: أخبرنى كيف قلت؟ فأعاد الكلام. فقال الحَجَّاج: صدقتَ والله، أفٌّ لهذه الجيَف، أما كان فيها أحد ينبهنا كما نبهنا هذا؟ أطلقوا عنه، وعن باقى الأسْرَى!!

ويأتى بعد الحَجَّاج عُبَيدُ الله بن زياد، وخالد القَسْرىُّ، وهما لا يقلان ضراوة عن الحَجَّاج، ومع هذا، ومع ما سنجد للقاضى التَّنُوخى من مَيْلٍ إلى آل أبى طالب لا مجال للشك فيه، ومع ما هو معروف عن دَوْر ابن زياد فى استشهاد الحُسَيْن رضى الله تعالى عنه، ومع أن الكتاب قد سجَّل خبرًا يؤكد هذه القسوة فى ابن زياد، فإنه يروى خبرًا آخر يُظهره فى صورة مَنْ يخشى الله، ولا يجسر على الاستخفاف بكلامه الشريف، فها هو رجل من القراء يُساق إليه على أنه من الخوارج، وفى حين ينكر الرجل التهمة يتوعده عَبْيدُ الله بالانتقام، ويأمر بسَجْنه، فيتمتم الرجل بكلمات غير مُبينَة، فاغتاظ ابنُ زياد، وأمره بالجهر بما هَمَس به، فإذا هما بيتان من الشعر:

عسى فَرَجٌ يأتى به اللهُ إنه ... له كلَّ يوم فى خليقته أمْرُ

إذا اشتدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْرًا فإنه ... قضى اللَّه أن العُسْرَ يتبعُه يُسْرُ

فسكت ابنُ زياد ساعة، ثم قال: قد أتاك الفَرَج. خَلُّوا سبيله!!

يمكن أن نجد مثل هذه المواقف مذكورة لمعاوية، وعبد الملك، وهشام، والوليد ابن يزيد، لا نجد هذا الشر المطلق فى نفوسهم بغير عقال، إنهم بشر، يهتزون للكلمة الطيبة، ويأسرهم المعروف، ويُقدِّسون الأعرافَ العربية، حتى يَعْفُوَ أحدُهم عن ألدِّ أعدائه حين يكتشف وجوده على مائدته وقد أكل من طعامه.

أما خلفاءُ بنى العبـاس.. فإن الحديث حولهم أكثرُ تنوعًا، فأكـثرهم قد اعتَقَلَ وزيرَه أو قتله، وهذا وحـده مَعِينٌ لا ينضَب للشـدائد، كما أنهم -هم أنفـسهم- عانوا شدائد وأهوالاً حين تسلط الأتراك ثم الدّيْلَمُ على الخلافة، فهم بين مقتول، ومخلوع، ومـسمـول (السَّمْل هو إطفـاءُ نور العينين بتـعريضهـما لحـرارة شديدة كمسـمار محمى)، ومَـنْ ليس له من الأمـر شيء، ومـع ذلـك فـإنهـم كـانـوا إذا ما قَـدِروا أنزلوا البلاء حتى بأولئك الذين أوصلوهم إلى الخـلافة، وأيدوا مُلكهم. إن هذه الأخبار والقصص المدونَّة أشهـر من أن نتوقف عندها، وسنكتفى بالإشارة إلى ما تدل عليه من قلق نظام الحكام والفساد الإدارى والمالى، أما الآن فتعرف إلى ما يمكن أن يعتبر «إضافة» لم يهتم بها المؤرخون.

من ذلك هذه القصة، التى جرت فى عهد المعتضد لأحد رجاله ومنها أن الخليفة كان له جهـاز استخبارات خاص، يرفع تقـاريره إليه هو شخصيّـاً، وأن هذا الجهاز كان يراقب كبـار رجال الدولة -وليس أعداءها- وأن العاملين فيه كـانوا يُنْتَقُون ممن لا يتوقع أحد منهم هذه المهـمة، وأنهم كانوا يحتالون بكل وسـيلة ممكنة للحصول على الأسرار. وربما دل الخبـر -القصة- على أن الوزير كان له جهازه المضـاد. فقد كان للقاسم بن عبيد الله -وزير الـمُعْتَضِد- سنة ٢٨٨هـ حياة خاصة عابثة، يشرب فيها ويلعب مع جواريه بغير تَحَرُّج، غـير أنه كان يخفى ذلك كله عن الخليفة حتى لا يستنقصـه، ويتهمه بالتشـاغل عن الأعمال. لكن الخليفة ألـقى فى طريقه جُمْلَةً تدل على معرفـته بما يجرى فى الخفـاء. فخرج الوزير وقد كـاد أن يَتْلَف غَمّاً. إذ كيف بلغه الـسر، وهل يدل هذا على معرفتـه بباقى الأسرار كالهـبات والرَّشَاوَى؟ «وكان له فى داره صاحبُ خَبَرٍ جَلْدٍ يرفع إليه الأمور، فأحضره وعرفه ما جرى بينه وبين الـمُعتَضِد، وقال له: ابحث لى عمَّن أخرج هذا الخبر، فإن فعلتَ، زِدْتُ فى رزقك وأجْزتُـك بكذا وكذا، وإن لم تُخـرِجه نفيـتُك إلى عُمَـان. وحلف له على الأمرين»، وهكذا وقف رجل الاستخبارات فى مواجهة رجل الاستخبارات الآخر، واستطاع أن يكشـفَه فى ثياب الـمُكدِّين (الشـحاذين) يتظاهر بأنه عجـوز، ويحمله بثياب تخفـيه إلى دار الـقاسم الـذى يستـجوبه سـراً، ويأبى إلا أن يعرف حقـيقته

«أوَ لا ترى ضَوْءَ الدنيا» فـيُضطر إلى الاعتراف بأنه فلان الهاشـمىٌّ، وأنه يتجسس للمعْتَضد. فـيحبسه، ويتغافل عنه، إلى أن يطلب الخليفة منه بنفـسه إطلاق مخبره الخاص، الذى كشف أمره (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٨).

ونعرف من قصة أخـرى أن الإدارة السياسية فى العهد الـعباسى عرفت منصب مَنْ يسمى فى زماننا «وزيرًا بلا وزارة» أو «وزير المتابعة» وكان فى عمله يتبع الوزير -فهو بمثـابة مـساعـد له- ولـيس الخـليفـة، فقد كان أبو جعـفر بن أحمد حـاجبًا لأبى محمد الـمُهَلَّبى قبل تولى الوزارة، فلما صار الـمُهلبى وزيرًا «كان يُصرِّفُه فى الاستحثاث على العمال، وفى الأعمال التى يتصرف فيها العمال الصغار»، ونفهم من سيـاق القصة أن وزير المتـابعة يُنتـدَبُ لأداء مهمـة عاجلة وأنه «قائم بحـضرة الوزير» لمثل هذا الشـأن. (القسم الـثانى -الفـصل الثالث- القـصة رقم ١، وقـد سبقت الإشارة إليها).

ونعرف أيضًـا أن المأمون بعد أن تغلب على أخيـه بسيوف الخُرَسَـانية، أراد أن يكافئَهم بـتوليتهم المناصب، والأعمـالَ الإدارية والمالية التى يمكن أن تُعتـبر بمثابة تعويض، ولأنهم أهل ثقته، وقد أدَّى هذا إلى تعطيل الموظفين القُدامى واضطراب معيـشتهم، ومن هذه القصـة نجد شيخًا خُـرسَانيًا مُغـفلاً، أميًا، يُقبـل على أكبر الكُتَّاب سنًا، ويطلب منه أن يختار له عملاً مناسبًا ليتولاه كما أمر أمير المؤمنين.. ويسخر الكاتبُ الـمُـتمَرِّسَ من هذا الطلب الساذَجِ من رجل لا يعـرف ماذا ينبغى عليه أن يعمل، فيقترح عليه تولى وظيفة لا وجود لها. فقال: لا أعرف لك عملاً أولى بك من بَزْبَنْدَات البحر، وصَدَقَات الوَحْش -أى الجسور التى تصد ماء البحر عن الشاطئ وأوقاف الوحـوش- فقال له: اكتبه لى، فكتبـه، ورَفَعَ طلب الوظيفة إلى الخليفة الذى غـضب للسخرية من زعمـاء أنصاره وشيعتـه، وأحضر الكاتب، وقال له: يا جـاهل. تفرَّغْتَ لأصـحابى؟ ولكن الكاتب يرد بأمـانة على المأمون، مُفَنِّدًا خطر الاعتماد على «أهل الثقة» -وإهمـال «أهل الخبرة» ومقترحًا الحل الذى يُرضى سـياسة الدولـة، ويحفظُ مـصالحهـا فى نفس الوقت، فـقال له: يا أمـير المؤمنين، أصحـابُنا هؤلاء ثِقَاتُ يصلحـون لحفظ ما يصل إلى أيـديهم من الخزائن

والأموال، وأما شروط الخراج، وحُكمه وما يجب تعجيل استخراجه وما يجب تأخيرهُ، وما يجب إطلاقهُ، وما يجب منعُه، وما يجب إنفاقُه، وما يجب الاحْتساب به، فلا يعرفونَه، وتقليدهم يعود بِذَهَاب الارتفاع (أى تضطرب به ميزانية الدولة ولا تصل إلى ما نحصِّله الآن) فإن كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا، فضمَّ إلى كل واحد منهم رجلاً منّا، فيكون الشيعىُّ يحفظ المال، ونحن نجمعه» (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ١٨).

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه، وأمر بتقليد عُمَّال السواد وكتابه، وأن يضم إلى كل واحد منهم، واحدًا من الشيعة.

إننا لم نرد -فى مستوى الخلفاء- أن نقف عند صُورَ تَرَفهم، وصراع أولياء عهودهم، وخفايا ما يجرى ليلة موت أحدهم (انظر مثلاً ما يروى عن كيفية موت الهادى، وليلة أغمى على الرشيد بسبب التخمة حتى ظن أنه مات، أو ليلة مات فعلاً!) فهذا مما يمكن تحصيله من كتب التاريخ، أما التفاصيل الصغيرة فهى ما نعنى به هنا.

نذكر مثلاً أن الرشيد عرف أن العَتَابى الشاعر يقول بالاعتزال، فتهدده حتى حمله على الهرب، ولكن بعض محبيه وضع شيئًا من خطبه ورسائله فى طريق الرشيد، فأعجب به، وعفا عنه، واستقدمه ليعلم الأمين والمأمون «ويضع لهما خُطبًا».

ونعرف من أخبار أخرى أن كبار أدباء العصر كانوا يضعون الخطب لولى العهد، الذى يحفظها ثم يلقيها من الذاكرة يوم الجمعة، حين تُعْلَن بيعتُه لولاية العهد.

ومن الأمور الطريفة ما يطلعنا عليه أكثر من خبر، أنه حين كان يتم القبض على إحدى الشخصيات العظيمة، ذات الجُرْم العام، كانت هذه الشخصيات تقدَّم للمساءلة فيما جنت فيما يشبه المؤتمر العام، أو المحاكمة العلنية، وكان هذا المجلس يعقد برئاسة شخصية بارزة، الخليفة أو أحد قواده، وكان الحاضرون يشاركون فى توجيه الحكم على المتهم، كما أن شخصًا يُختَص بأمور الدعاية للخليفة كان يقف

خطيبًا عند افتتاح الجلسة، يُسْهِبُ فى إبراز مآثر العهد وفضائل الخليفة ووجوب طاعته، والخبران عن هذا التقليد يرجعان إلى عصر المأمون، ونرجِّح أنه لم يبتدعهما وفى أخبار الخلفاء ما يدل -ولو بصورة مصغرة- على وجود مثل هذه المحاكمات العلنية، ذات الطابع السياسى، يَحْضُرُها أعضاءُ الأسرة الحاكمة، وكبراءُ الدولة، لقد قيل إن إبراهيم بنَ المهدى قُبض عليه وهو يحاول الهرب فى ثياب امرأة، وأن المأمون طلب مثوله على الحال التى أخذَ عليها «ثم جلس مجلسًا عامًا، وقام خطيبٌ بحضرة المأمون يخطب بفضله، وما رزقه الله، جَلَّتْ عظمتُه، من الظفر بإبراهيم بزيِّه.. وحين قتل الأمين واضطربت أوضاع الخلافة انتهز أبو السَّرايا الفرصة، وخرج بالطالبيِّين فى البصرة غير أن الحسن بنَ سَهْل، قائدَ جيش المأمون، تمكن من دخول البصرة، وهرب الطالبيون وقُبض على أحد زعمائهم: زيد بن موسى بن جعفر الصادق، فما كان من الحسن بن سهل إلا أن جلس مجلسًا عامًا من أجله، ودعا به، فأنَّبَه، وَوَبَّخَه، وقال: قتلت الناس وسفكْتَ دماءَ المسلمين، وفعلتَ، وفعلتَ. ثم أقبل على مَنْ حَضَرَهُ من الناس والهاشميين وغيرهم، وقال: مَا تَرَوْن فيه؟ فأمسكوا جميعًا، وانبرى له قُثَمُ ابن جعفر بن سليمان، فقال: أرى أيها الأمير أن تضرب عنقَه، ودمُهُ فى عنقى» وهكذا قُدِّم زيد للقتل، ولكن رجلاً من أصحاب المناصب فى عهد الرشيد (قائد البحرية) يتدخل، ويمنع القتل، لأن المأمون لم يأمر به صراحةً، وهو هاشمى علَوىٌّ من أبناء عمومته!!

وهكذا نكتشف أن المحاكمات السياسية، ونظام الادعاء، ونظام الدفاع، وربما الأخذ بنظام المحلفين -أو القضاة الشعبيين- كان معروفًا، ويُلْجأ إليه فى توجيه التهمة للشخصيات ذات المنزلة الاجتماعية والسياسية.

وحين نغادر دائرة الخلفاء إلى دائرة الوزراء سنجد صور الصراع بين العرب والفرس، منذ تأسيس الخلافة العباسية، وعَبْرَ كل العهود، وسنجد وسائل تجنيد الأنصار، ودس العملاء وتجميع المعارضين، والوشاية، واصطناع التهم، وإثارة الظنون وتوجيهها، وتوزيع مناصب الدولة، وجزءًا من ثروتها على المُمَالئين

والأقارب.. كل هذا مما استشرى وكأنه وباء فى الجهاز الإدارى منذ تأسيس الخلافة، وأخذ مداه فى عصور الضعف، فى أعقاب عصر المُتَوكِّل، إلى أن خرج الأمر برُمَّتِه من أيدى الخلفاء.

ليس بمُسْتَغْرَبٍ أن نجد ولى العهد يكوِّنُ لنفسه بطانَةً تناصره حتى على أبيه الخليفة، وتتعجل انتقال السلطة إليه، ويحدث أن يقف وزير الدولة فى صف الخليفة، ومِنْ ثَمَّ ينتظره سوء المصير حين تنتقل السلطة إلى ولى العهد، فهذا الخليفة المهدى يختار إبراهيم الحرانى كاتبًا لابنه موسى الهادى فى منطلقه إلى جُرْجَان، ثم يبلغه عن هذا الكاتب ما لا يُطمْئِنُه فيأمر ابنه بإرجاعه إليه، ولكن موسى يتهرب من إفناذ الأمر حتى «كتب إليه المهدى: إن لم تحمله خلعتُك من العهد، واسقطت منزلتَك» فيُذْعِنُ مضطرًا ويرسل الحرَّانىَّ، ولكن المهدى يموت يوم وصوله فى ظروف غامضة، (قيل: بطعام مسموم، وقيل: سقط من فوق فرسه) ليصبح الحرانىُّ وزيرًا للخليفة الجديد، ويُنَحَّى الربيع عن الوزارة، وفى مرة أخرى لا يُنَحَّى بل يُقتل، فقد كان المُعتضِدُ يعتقد أن الوزير إسماعيلَ بن بُلْبل هو السبب فى سوء رأى أبيه الخليفة المُوَفَّق فيه، وأنه الذى أغراه بحبسه حتى صار يَخْشَى أن يُقتل، ومع أن الوزير أقسم وتَرضَّى وتنصَّل، وهو لا يزال وزيرًا، فإن ولى العهد لم يمهله حين أفضت إليه الخلافة (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٦).

وهذا المتوكل يستعدى إسحق المُصْعَبىَّ -صاحبَ الشُّرطة فى بغداد إبان عهود المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل- ويُسْلِمُه عُبَيْدَ الله بن سُليمان بن وَهْب، ويقول له: هذا عدوى فافصل لحمه عن عظمه، هذا كان يلقانى أيام المعتصم فلا يبدأنى بالسلام، فأبدأه به لحاجتى إليه، فيردُّ علىَّ كما يرد المَوْلَى على عَبْدِه، وكل ما دبَّرَ إيتاخ (القائد التركى) فَعَنْ رأيه!!

لا يمكننا الاستطراد فى مثل هذه الحوادث الدامية، ويكفى أن نشير إلى وزير مثل ابن الفرات، الذى أخذَ من الوزارة إلى السجن والعذاب، ومن السجن إلى

الوزارة ثم من الوزارة إلى السجن والعذاب مرة أخرى، وفيها قتل (انظر القصة بهذا العنوان: القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٢).

وقد كانت أقدارُ الكُتَّاب والعُمَّال من الولاة، وأصحاب الخَراج مرتبطةً بمصائر الخلفاء والوزراء الذين يستخدمونهم، فلا عجب أن تكثُر نكباتُهم ومصادراتُهم، وأن يتفننوا فى اختراع وسائل الاختفاء، وأن يتقنوا تهريب الثروات، وأن يستنزفُوا أموال الناس حين تكون فى أيديهم السُّلطة تَحَسُّبًا ليوم يُعزلُون فيه، ويُطَالبون بمبالغ خيالية يعرفون أنه ما من الوفاء بها بُدٌّ، ولا بد أن يبقى لهم شىءٌ كثير بعدها. ولأن هذه الفترة من العصر العباسى -ونعنى القرنين الثالث والرابع- فترةُ اضطراب سياسى وفساد إدارى شنيع، نجد الأخلاق العامة تتبعها: مضطربةً فاسدةً، يصدر قرار الخليفة بسجن وزيره وتعذيبه فيسجن ويعذب بإشراف كبار رجال الدولة، لكنهم يتودَّدون إلى الوزير السجين سراً، ويعتذرون إليه تَحَسُّبًا لاحتمال عودته إلى الوزارة (تأمل دلالة القصة السابقة، وأيضًا من الفصل الرابع- القصة رقم ٧ والقصة رقم ١٠).

ويقبض الوزير محمد بن عبد الملك الزيات على سلفه الوزير عبيد الله ابن سليمان بن وهب، ويهينه ويعذبه، وفى خدمته أخوه الحسن بن وهب، فلا يجسر على أن يتشفع لأخيه عند الوزير، ولا أن يخفف عنه البلاء.

ويُسلَّم أبو دلف العجلى -القائد البطل العربى- للأفشين بأمر المعتصم يفعل به ما يشاء، ويتصدى القاضى أحمد بن أبى دؤاد، ويحتال فى ذلك بطرق غير مأمونة، فينقذه، ويستهدف لعداوة الأفشين (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ١٥، واقرأ أيضًا القصة رقم ١٣ من هذا الفصل).

لهذا الخطر الماحق صارت الشروة هدفًا يسعى إليه العمال، وأصبح بذل الرشوة أو قبولها أمرًا عادياً للحصول على الحماية أو إسباغها على مَنْ يطلبها (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٦). والمتاجرة بأموال الدولة عملاً مباحًا (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٩).

ومن أقوى الأخبار دلالة على الفساد الإدارى والمالى ما ذكر من أن بعض العمال تقلد الأهواز وأراد أن يبدأ عهده بتطهير جهاز الحكومة، ومنع الرشوة، وإلزام كل موظف بموقعه لا يتخطاه، فأحس كبراءُ المدينة بالخطر الذى يتهدَّدُ مكاسبهم وتسلُّطهم بمنع الرشوة عن الموظفين، فاختار الكبراء واحدًا منهم يكلم الوالى الجديد. يقول: «فجئتُه، وخلوتُ به، وبذلتُ له مرْفَقًا جليلاً (رشوة ضخمة) فلم يقبله، ودخلتُ عليه بالكلام من غير وجه، فَمَا لأَن، ولا أجاب. فلما يئستُ منه، وكدتُ أن أقومَ عنه، قلت له: يا هذا الرجل، أنت مقيم من هذا الأمر على خطأ شديد، لأنك تظلمنا وتزيل رُسُومَنا من حيث لا يحمَدُك السلطان، ولا تنتفع أنت أيضًا بذلك، ومع هذا فأخبرنى: هل تأمن أن تكون قد صُرِفْتَ (طُردتَ من الوظيفة) وكتاب صَرْفِكَ فى الطريق، يَردُ عليك بعد يومين أو ثلاثة» وما دام هذا الاحتمال واردًا، والوالى لا يطمئن فى موقعه إلا أيامًا، فلماذا تُضيِّع فُرصَةَ تعويض ما يُحتمَلُ حدوثُه؟ وبالفعل اهتز ثبات الوالى، وقبل المرِفْق (الرشوة) ولم تمض أيام حتى جاء خطاب صَرْفِه عن الوظيفة، فراح يشكر الوسيط القديم على نصيحته، وهو لا شك فى أن لهذا الوسيط عُيونًا فى بغداد تكاتبه بما سيحدث، وأنه كان عارفًا بما سيكون من إنهاء خدمته بهذه السرعة!!

ثانيًا: صور الحياة الاجتماعية:

لم نرد فى هذه الفقرة أن نقدم وصفًا للحياة الاجتماعية، أو بعض جوانبها، كما أننا لم نحاول فى الفقرة السابقة أن نُحصى أو نعرضَ الأخبار والشخصيات التاريخية التى احتفل بها الكتاب. لقد أردنا أن نشير إلى أهمية هذا المجال، وأن نضع تحت نظر القارئ نماذج مما يمكن أن يعتبر إضافة فى هذا الجانب، لأن كتب التاريخ لم تحفل به، لسبب أو لآخر، وفى صور الحياة الاجتماعية لن نتخلى عن هذا القصد، ولم نتوسع فيه توسعنا هناك، وبشكل عام فإن القاضى التَّنوخِى لم يعمد إلى كتابة أو جمع قصص اجتماعية، بالمعنى الذى يُقصد الآن من استخدام هذا المصطلح، أى تصوير العادات والتقاليد وأنماط السلوك، وتسليط الضوء على بعض المشكلات ذات الطابع العام، والتى تُهمُّ الطبقات الدنيا فى المحل الأول،

فلسنا نظن أن هذا المعنى الاجتماعى، أو ذاك المغزى الطبقى كان واضحًا عند كاتب فى القرن الرابع الهجرى بمثل وضوحه الآن، أو بما يقارب وضوحه الآن. ومع هذا فإن القاضى التَّنُوخى قد جمع قصصًا عن اللصوص، وعن العُشَّاق، يمكن أن تعتبر فى صميم القصة الاجتماعية، غير أن ما أردناه بـ «صور الحياة» يتجاوز إلى ما يصلح اقتناصه فى سياق أية قصة، أو أى خبر.

إن علاقة التفاعل الجدلىِّ بين التركيب الاجتماعى فى مفرداته الطبقية لن يسمح بعَزْلِ أوضاعٍ أخرى، إنها لا بد أن تكون سببًا ونتيجة فى الوقت نفسه، وقد رأينا كم كانت أوضاع الخلافة متردية، وكان المنصب ألْعُوبَةً، وكانت النساء من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وجواريهم مُتَحكِّمات، حتى كان بعضُهن يُقِمْنَ فى بيوتهن -ولا بد أنها قِلاعٌ أو تشبه القلاع- سجونًا خاصة، ويمكن لإحداهُن أن تحكمَ على موظف عندها بالقتل، دون أن يمر بأى مرحلةٍ من مراحل التقاضى!! ومن الطبيعى أن يؤثِّر هذا الخللُ الأمنىُّ الاجتماعى فى الطبقة المتعاملة مع طبقة القمة، فنجد الولاةَ والعمّالَ يجدُّون فى جمع الثروات ويتفننون فى حماية أنفسهم. كان أبو جعفر بن شِيرْزَاد الكاتب يسكن دارًا هى قَلْعَةٌ بالفعل وكان لها أربعةَ عَشَرَ بابًا، يُفضى بعضها إلى جهات وأزّقة لا يَعرف عنها أحدٌ شيئًا. وكان يملك من الغلمان المسلَّحين المستعدين لافتدائه ما استطاع به أن يعطل قرارَ الوزير، ويَرفُضَ مغادرة بيته، ويتحدى السُّلطة الرسمية، حتى تمكن من الاختفاء خارج بيته إلى أن أتاه الفرج!!، كما أنهم كانوا إذا هُدِّدَ أحدُهم فى حياته وقُدِّم للقتل، هَتَفَ: وأين المصادرات؟ أين أنتم عن أموالى أفتدى بها نفسى؟ أما إذا أحيط به من أجل الاستيلاء على ثروته، التى لا بد أن تكون تضخمت بشكل لا يسهُل احتمالُه راح يُنكر ثروتهَ، التى تَفَنَّنَ فى إخفاء معالمها. ويَصْمُد لعمليات التعذيب على عنفها، ويساوم ليُصَالَحَ على بعض المطلوب منه، ويدّعى أنه تسلَّفه من أصدقائه وكرماء عصره لينفذ نفسه، وهذا رجل ذو خبرة، يرشد أحدَهم إلى وسيلةٍ يُقنِع بها الوزيرَ أنه لا يملك المال الذى يُطالَب به. قال: تكتب رُقْعَةً إلى رجل من معاملتك تَعْرِفُ شُحَّهُ وضيقَ نفسه، تلتمس منه لعيالك ألف درهمٍ يُقرضُك إياها وتلتمسُ منه أن

يجيبكَ على ظهر رُقعتكَ، لترجعَ إليك فإنه لشُحِّه، يَرُدُّك بعذر، وتحتفظُ بالرقعة، فإذا طالبك الوزير أخرجتَها له على غيرُ مَوَاطَأة، وقلتَ له: قد أفْضَت حالى إلى هذا. (القسم الثانى -الفصل الأول- قصة رقم ٩).

وجديرٌ بالذكر هنا أن الخلفاء كانوا -عادة- على علم بالثروات المخبَّأة، ولم يكونوا يعترضون عليها أو يمدون إليها أيديهم، إلا إذا رأوا أنها صارت من الضخامة بحيث تهدِّد جانبًا من سلطانهم، أو أن يُوَاجِهَ الخليفةُ أزمةً سياسية يحتاج حلُّها إلى المال بشكل غير عادى، ولا تسعفه الخزانة العامة، وتشح نفسه عن إخراج المطلوب من ماله الخاص، فحينئذ يلجأ إلى المُصادرة والاسْتِصْفَاء، وهو سلاح مُشْرَعٌ فى أى وقت، وله مسوِّغاته الجاهزة. يدل خَبَرٌ عن الرشيد أنه رَضِىَ عن فَرَج الرُّخَّجِىِّ، وأعاده عاملاً على الأهواز حين اعترف أمامه بمقدار ثروته الحقيقية، ومصادر حصوله عليها فى مرحلة عمله السابقة، وعرض هذه الثروةَ الضخمةَ على الرشيد ليأخذَها. ودلَّ على مكانها، فقال الرشيد: باركَ الله لك فى مالك، ارجع إلى عملك!! (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٩).

وخبرٌ آخر عن المأمون، أنه دعا يومًا بأبى عَبَّاد، وأمره أن يأتىَ عَمْرًا ابنَ مَسْعَدَةَ، ويدوِّنَ معه ورقة بكل ما يملك بالتفصيل، ويوقِّعان عليها معًا، ويحتفظ بها أبو عَبَّاد، وتكون المفاجأة التى لم يفهم سرَّها أبو عباد أن عَمْرًا ابنَ مَسْعَدَةَ لديه أمر من المأمون أن يفعل الشىءَ نفسَه مع أبى عبّاد. ويوضح ابن مُسعدة اللغز، فيقول: إن صاحبنا -يعنى المأمون- ليس ببخيل، ولكنه يكره أن يُطوى معروفه، وإنما أراد أن يُعلمَنا أنه قد عَلِمَ بما صار إلينا، فأمْسَكَ عنه عِلْمٍ (القسم الثانى -الفصل الرابع- القصة رقم ٣).

وقد أوضح المأمون -فيما بعد- قصَده، فهو لم يستكثر على رجال دولته ما جمعوا من ثروة، ولكنه أراد أن يُزِيلَ عنهم غمَّ المُسَاتَرة، وثِقْلَ المُراقبة!! أما هذه الثروة التى سامح فيها المأمون رَجُلَيْه فقد كانت أربعين ألف ألف درهم لابن مَسْعَدَةَ، وسبعةً وعشرين ألف ألف لأبى عَبّاد!!

هذه صورة الطبقة العليا فى المجتمع، تتحرك بين قطبين متباعدين، يُمثِّل الثراء والسُّلطة جانبًا، والمصادَرَةُ والسَّجْن جانبًا آخر. وبين هذا وذاك حياةٌ متوترة بالترف وانْتهاب اللذات، وانتهاز الفرص وتوقع المداهمة وزوال السلطان، ولكنها تمارس جَبَرُوتَ التحكّم والعَسْف، لعل هذا يؤخِّرُ فى نزول المحنة القادمة لا ريب. هذا الوضع العام، بما يُشيع من جوٍّ نفسى كان له أثره -لا ريب- على النظام الاجتماعى. لقد عرف هذا العصر انتفاضاتٍ كبرى، كثورة الزِّنج فى منطقة البصرة. وثورة القَرَامِطة وقد بلغ بهم الحال أن نزعوا الحَجَرَ الأسودَ من الكعبة، وطردوا الحُجاج، ووصلوا بجيوشهم إلى بغدادَ العاصمةِ التاريخية، وإن مناقشة هذه الحركات الانفصالية بمعْزِلٍ عن غياب العدْل الاجتماعى، واضطرابِ النظام المالى للدولة الإسلامية، واعتمادِ الخلفاء على الجنود المرتزِقة من تُرْكٍ وَدَيْلَم فى حماية دولتهم، يؤدى إلى نتائجَ قاصرة، وهذه القصص الكثيرة التى تنتشر فى الكتاب. يمكن أن تجدَ فيها ملامح التداخل بين هذه الظاهرات جميعًا، وكيف كان كل منها يرتبط عضوياً بالآخر.

لقد قدَّم القاضى التَّنُوخِىُّ صورًا نادرة لحِيَل اللصوص، ونماذَج لسلوكهم وتقاليد مهنتهم؛ سنجد للصوص نقيبًا، يعرف شخصية السارق من أسلوب سَرِقَته، والمنطقة التى وَقَعتْ بها السرقة، وهو يمارس مهامَّ رئيس الطائفة حتى وهو فى السجن، فيتشفع فى ردّ مال مسروق (القسم الثانى- القصة رقم ٥).

ونجد قاطع طريق يستبيح مال التجار وينهبه معتمداً على فتوى فقهية، مؤداها أن المال الذى لا تُخْرَجُ زكاتُه يفقد حُرمَته، فيأتى بالتجار الذين أخذ تجارتَهم ويسألهم كيف يُؤدون زكاتها؟ بأية نسبة؟ ومتى؟ وهل تُخْرَج زكاةُ الديون، والمدخراتِ الذهبية... إلخ، ويكشف أمامنا عجزَهم وتخبُّطهم بما يدل على أن حق الله فى هذا المال لم يصل إلى مستحقيه، ومِنْ ثَمَّ لا حُرْمة له (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٤).

ونتعرف على «ابن حمدى» اللص البغدادى المهشور بالفتوة والظُّرف، وكان لا ينهب أصحاب البضائع البضائع القليلة. وسنجد أبلغ بيان عن محركات

اللصوصية يقـولها ابن حمدى هذا، الذى يجد فى قطعه للطريق عـملاً أقلَّ قسوة وضرراً مما يفعل الوزراء والولاة فى الناس، يقول لواحد ممن سلبهم أموالهم: «الله بيننا وبين هذا السلطان الذى أحـوجنا إلى هذا، فإنه قد أسـقط أرزاقنا، وأحْوَجَنا إلى هذا الفعل، ولسـنا فيما نـفعله نرتكب أمراً أعظمَ مما يرتكـبه السلطان. وأنت تعلم أن ابن شِـيرْزَادَ بـبغداد يُصـادر الناس ويُفقِـرهم، حتى إنه يأخـذ الـمُـوسِرَ الـمُكثِر، فلا يخرج من حبسه، إلا وهو لا يهتدى إلى شىء غير الصَّدَقة، وكذلك يفعل البريدّى بواسط والبصرة، والدَيْلَمُ بالأهواز. وقد علمتُ أنهم يأخذون أصولَ الضِّياع، والدور، والعَقار، ويتجاوزون ذلك إلى الحُرُم والأولاد، فاحسَب أننا مثل هؤلاء، وأن واحداً منهم صَادَرَكَ».

«فقلت: أعـزَّك الله، ظُلْمُ الظَّلَمَة لا يكون حُجَّة، والقـبيحُ لا يكون سُنَّة، وإذا وقفتُ أنا وأنت بين يدى الله عَزّ وجَـلَّ، أترضى أن يكون هذا جوابك له؟ فأطرق ملياً، ولم أشكّ فى أنه يقتلـنى، ثم رفع رأسه، فقال: كم أُخِذَ منك؟ فَصَـدَقْتُهُ. فقال: أحضروه. فأحضِر، فكان كما ذكرتُ، فأعطانى نصفه».

هكذا يبدو قاطعُ الطريق صَـدًى لأخلاقيات العصر وسيـاسته، ويبدو -فى نظر نفسه- أكثـرَ رِفْقًا وأنسانية وأرفعَ خُلُقًا من الوزراء والولاة فيـما يُنزلونه بشعوبهـم، فهو لا يستأصل رأسَ المال فى الضِّياع والعقار، ولا يتطلع إلى الحُرُمِ والأولاد، إنه يكتفى بنهب المال المنقول، وقد رضى هذه المرَّة بالقسمة مُنَاصَفَةً.

وبصفة عامـة.. فإن قُطَّاع الطريق واللصوص كان لهم نفوذ شِبْـه معتَرف به فى المناطق التى يسـيطرون عليهـا، وكان مَنْـسِرُ بعـضهم يبلغ مـائةَ نفس، بأسلحتـهم وعُدَّتهم «كالعسـكر العظيم»، ويلفتنا أن القاضى التَّنُوخِىّ يصوِّر الجـوانب الإنسانية والدوافعَ النفـسية لدى هذه الـطائفة الخارجـة على النظام -إن كان ثَمَّـةَ نظام، ولـم يصوِّرهم فى حالة منفِّرة أو قاسية إلا نادراً -وقد كان بعضهم لا يعبأ بسُّلطة الدولة، ويقطع طريق النهر عـلى قافلة بحرية تحـمل رسالةً من الخليفـة، ولكن الغالبَ أنهم كانوا يتـجنبون الصدام مع السُّلطة، التى كـانت تتغافل عنهم فى حدود، وقـد تَقْبَل

مصالحةَ بعضهم ومـقاسمته مكاسبه، بشرط أن يتوب، كما تُعْـجَبُ بشهامة بعضهم وفروسيَّـته فلا تُسرِعُ إلى معـاقبته. وإذا جاوزنا القصص الـتى عقدت لقطّاع الطريق والمتلصصـة، فإننا سنجد علامـات غياب الأمن، وتعرُّضَ القـوافل والأفراد للسلب تكاد تكون جزءًا من تركيب القصة، وملامح المجتمع فى تلك الفترة المضطربة.

وفى باب: «مَن نالته شدة فى هواه، فكشفـها الله عنه ومَلَّكه مَنْ يهواه» سنجد بعض قـصص الـمُحـبيِّـن العُذْرِيِّين فى نَمَطِهـا التـقليدى الذى نجـده فى كتـاب «الأغانى» ولكن الأكثـر أهمية أننا سنجد عـددًا من القصص المحبوكـة فنيًا، يقوم بدَوْر العاشق والمعشـوق فيها السيدُ وجـاريتُه غالبًا، أو شابٌّ حـرٌّ وجاريةٌ يملكها بعضُ السادة من عِلْية القوم أو الجيران، فى أحيان أخرى، وهذا النوع من القصص يضع أمامنا نوعًا من العَلاقات الاجتماعـية أهملته الدراسات التراثية على تنوعها. هناك بعض الكتب التى اهتمت بأخبار القِيَـان (الجوارى المغنيَّات) أو الجوارى بصفة عامة، ولكنها اهتمت غالبًا بأخـبارهن فى مجال الغِناء أو اللهو والعبث، أو النفوذ السياسى على سادتهن، ونادرًا مـا نجد اهتمامًا بالحياة العـاطفية لأولئك الجوارى، وكأننا نَفْتَرِضُ -أو افـترض القدماء- أنها ما دامت مملوكـةً فلا بد أن تكون مُذْعِنَة لسيدِها، خاضعةً لرغباته!! وهذا التصـور سيبدأ من افتراض خاطئ، فأول شرائط الحب أنه يقوم على اعتراف عميق بحريّة الطرف الآخر وحقِّه فى أن يَمْنَعَ أو يمْنَحَ عن طوَاعِيَةٍ ورغبـة حقيقية، وهذا بدوْره اعترافٌ بالمسـاواة بين العاشق والمعشوق، وليس مصادفةً أن أقوى قصص الحب العُذرى اتخذَتْ من البادية مِهادًا لها موطنًا، حيث تستقر أسُسُ المساواة بين أفراد القبيلة، وبين القبائل المتناظرة. تتكرر فى هذه القصص «لازمة» السيد الذى لا يبقى له من الدنيا غيـرُ جاريته المحبوبة، قد تقترح عليه أن يبيعَهـا ليعيشَ بثمنها، وقد تعزِّيه بأنها ستـصادف سادةً أغنياء يتمكنون من إطعامها وكسوتها، وقد يأتى الاقتراح من جانب السيد، لنفس الدوافع، ولكنه فى كل مرة يَضْعُفُ فى اللحظـة الحاسمة، ويرفُض البيع برغم الثـمن الجزيل المعروض فيهـا، ولا يكتفى بالاحتـفاظ بها فى مِلْكه، بل يُعلن أمام الـشهود أنه أعتـقَها، وجعل عِتْقَها صَدَاقَها، ويطلب منهم أن يزوِّجوها له!!

هذا النوع من القصص يدل على المنزلة الاجتماعية التى حَظِيَتْ بها الجوارى فى العصر العباسى، وهو عصر عَرَف الخلفاءَ من أبناء الجوارى، لم يَشْغَل مكان الخليفة فى هذا العصر على طوله من أبناء الحرائر غيرُ السَّفَّاح -مؤسّس الدولة، والأمين ابن زبيدة. وقد كانت الجارية فارسيةً أو رومية، مثقفة بأرقى ما يحتاج التعامل الحضارى فى ذلك الحين. وبذلك كانت صاحبةَ الحَظْوة الفعلية، حتى على الحرّة العربية، التى تكتفى بمظهر السيادة، ولم يكن السيد الرجل يتردد فى أن يخضع لجاريته، بل يتذلل، ويسترضيَها قائلاً: يا ستى، ويسألها أن تصفحَ عنه، ويرضى بأن تشاركه عيشه الفقير، على أن يبيعَها ويعيش ثرياً محرومًا منها، وسنجد عندها الوفاءَ لهذا السيد العاشق، فلم يحدث أن جارية فضَّلت أن تُباع للأثرياء، على أن تبقى زوجة لسيدها الفقير، بل إنها تعاونه على اجتياز محنته، بما تُجيد من فن.

لا نريد أن نتوسع أكثر من ذلك، حتى لا يخرج هذا الفصل عن الحجم الذى ارتضيناه، ونكتفى بمجرد الإشارة إلى أوجه أخرى تظهر فيها صور المجتمع العربى فى القرن الرابع بتفاصيل أدق وأصدق مما صوَّر المؤرِّخون فى غيبة الرصد الاجتماعى للسلوك العام، وأنماط المعيشة، وألوان التغيُّر.

أ- العادات والتقاليد مثل كتابة الأحْجِبَة بقصد التأثير لاستجلاب الرضا أو تجنب السُّخْط، وتحصين الأطفال بوضع رغيف تحت وسادة الطفل والتصدق به صباح كل يوم، وتعليق رقع فيها شكاوى ومظالم فى محراب المسجد، أو فى قبور أئمة أهل البيت.

ب- نظام الشُّرْطة، وسنجد للنظام الأمنى مصطلحات وتحركات طريفة: فهناك الشُّرطة والعَسَس، والطَّوَّاف أو الطائف، وقد كانت بغداد مقسَّمة إلى أربعة أقسام أمنية، ولكل قسم مسئول، يعاونه جهاز ينتشر على مساحة الربع، ويرفع إليه تقارير، تتجمع فى تقرير واحد، يُقدَّم يومياً إلى صاحب الشُّرطة.

جـ - وهناك السجون وأنواع العقوبات وكانت درجات، تتدرج شدة وإذلالاً، فالمُطْبَق كان كالحفرة، وكانت كل زِنزانة تتَّسع لسجين واحد وهو جالس، وفى دِيماس الحَجَّاج كان المسجونون جميعًا فى سلسلة واحدة، وإلى جانب السجن الحفرة، وُجِدَ

السجنُ المكشوف للسماء، يحده سور عال، ولا يقى المساجين أى شىء فى الصيف أو فى الشتاء وكان يحدث أن يُسَلَّم الكبراءُ إلى نَظَائِرَ لهم يسجنونهم فى بيوتهم، فهذا نوع من تحديد الإقامة، أو السَّجْن السياسى، ولكنه لم يكن يخلو من عذاب.

وتتدرج العقوبات من الصَّفْع، إلى التجريد والجَلْد، وقد قُتِل الخليفةُ ابنُ المعتز باعْتِصَار خصيَتَيْهِ حتى الموت.

د- الرُّسوم: وتُراعى فيها منزلةُ صاحب السلطان، فالخليفة تُقَبَّلَ رِجْلُه، ويده، ويُقَبِّل العُمَّالُ البساطَ بين يديه، وقد يحظى الوزيرُ أو الكاتبُ بشىء يشبه هذا، وكان للخليفة كما للوزير يومٌ عام يجلس فيه لاستقبال العامة من أصحاب الحاجات، ويجلس من حوله أركانُ دولته: الوزيرُ والكاتبُ وقاضى القضاة، كلٌّ على درجته. وفى الأيام الأخرى لا يُدخل عليه إلا بإذن سابق.

هـ ـ أسلوب الحفاوة: وتتكرر فى القصص والأخبار طريقة الاحتفاء بعزيز قادم بعد غياب، أو إكرام غريب وافد. كان الأمر عادة يبدأ بإدخاله الحَمّام، وتقديم الطعام، ومؤانسته، ثم سؤاله عن حاجته، وكات المدنَ محاطةً بأسوار ذات أبواب تُغلق عقب الغروب، فإذا وفد إلى المدينة أحدٌ بعد إغلاق الأبواب لم يُسمح له بالدخول، ونجد دائمًا قريبًا من باب المدينة -خارج السور- مسجدًا يقضِى به الغرباء ليلتهم حتى يُفتح الباب مع الصباح، ومثل هذا المسجد كان يبنيه الكبراءُ قُربَ بيوتهم ويؤمون أتباعَهم فى صلاة الجماعة كل يوم. وكان من عادة رجل العلْيَة أن يُنهِى صلاتَه بوقار، ويتمهلَ قليلاً ليُتمَّ دعاءَه وتسبيحه، ثم ينظر خلفَه يستعرضُ وجوهَ المصلين، ومِنْ ثَمَّ يكتشفَ الوجوهَ الغريبةَ، ويعرف أنهم وفدوا لحاجة فيصحبُهم -بين رجاله- إلى جناحه الخاص، ليسألَ كلاًّ منهم عن مَطْلَبِه، ويُحسنَ إلى مَنْ جاء منهم يطلب الإحسان.

ثالثًا - المحاور الأخرى:

وقد تضمن الكتاب عددًا كبيرًا من الحكايات الشَّعْبِيّة، لا تستند إلى خبر تاريخى، ولا تحرص على الاقتراب من الواقع الاجتماعى، إن هدفَ الحكاية

الشعبية هو التَّرْفيه، تسليةُ المستمع أو القارئ بإثارة دهشته ومخاوفه وإيمانه القدَرى بأن ما يريدُه الله يكون مهما كانت رغبة الإنسان.

فى هذه الحكايات تلعب المفاجآت دوْرًا مهمًّا، ولكنه يصنع العِبرة فى النهاية، وهنا تلتقى الحكايةُ الشعبية مع القصة الوعظية التى تهدف إلى غاية أخلاقية، وإن لم تحرص على التسلية فإنها لا تعبأ كثيرًا بالواقع والمنطق، لأنها تُساق أصلاً فى نطاق المُعجزة. ولأن القَصَّ من أجل الوعظ كان بدايةَ طريق القصة الإسلامية التراثية، فإن أخبار بنى إسرائيل والعربِ البائدة، وجوانب من عصر الإسلام، تظهر فى هذا المجال تأتى مطلقة أحيانًا، وأحيانًا منسوبةً إلى نبى، فهذا نبى أو صِدِّيق ذبح عجلاً بين يدى أمه فخَبِلَ، ومسح عن فرخ أمام أمه فثاب عقله (القسم الثانى - الفصل الخامس- القصة رقم ٢١).

أما النبى دانيال فقد ألقى إلى أسود جائعة فذلَّت له حتى وضع رجليه على رؤوسها (القسم الثانى -الفصل الثانى- القصة رقم ٨).

وحكاية جحا المشهورة الساخرة، عن حماره الذى قطع ذيله، وامرأته التى أسقط حملها، تروى عن سدوم، وأن الله أهلكهم بها (القسم الثانى -الفصل الخامس- القصة رقم ٢٣).

أما قصص الوعظ القريبة إلى عصر المؤلف فإنها لا تختلف عن الحكاية الشعبية إلا فى غايتها الأخلاقية القدَرية. وأكثرها يقوم على مصادفة، فهذا رجل يُقسم ألا يأكل لحم فيل، فيكون ذلك سبب نجاته وثروته وآخر يحمله الأسد إلى عرينه ليأكله، فيجد هناك الثروة وفرصة النجاة، وهذا أسد يقطع الطريق على دائن ومَدين، وكان الدائن قاسيًا متشددًا، فأكل الدائن وسلم المدين.

وتشغل قصص وأخبار آل البيت حيِّزًا مهماً، وتتسلل فى طوايا قصص أخرى كثيرة وقد ترجم صاحب «أعيان الشيعة» لابن القاضى التَّنُوخى ولأبيه على أنهما من الشيعة. أما القاضى أبو على المحسِّن، كاتبُنا، فقد ذكرت مصادرُ أخرى أنه مُعْتَزِلىٌّ، حَنَفِىُّ المذهب، وليس ما يمنع من تعاطفه وتعلقه بآل البيت مع اعتزاله وحنفيته. وقد أورد قصصًا تدل على هذا التعاطف الواضح مع أبناء عَلِىٍّ كرَّم الله

وجهه، فالأسد لا يأكل أبناء عليٍّ وسلالتهم، وشخصية الإمام عليّ تتراءى فى المنام للظالمين والذين يُوشِكون على الوقوع فى الخطأ، فتُظهِرُ لهم وجْهَ الصواب أو تَرْدَعَهم، ولا يقوم معها بهذا العمل غير الرسول عليه السلام، وقد يظهر النبى فى المنام ليوصى بأحد العلويين، بل إن المعتضد لم يعرض فى خلافته للعلويين، وتفسير ذلك أنه حين كان سجينًا رأى عليّاً فى المنام، فبشَّره بالخلافة، وهو الذى لقَّبه المعتضد، ولا يظهر بعد الرسول وعليّ فى المنام غير الحسين وفاطمة، وتتراءى عَبْر قصصٍ كثيرة المنزلة السامية التى يشغلها آل عَلِيٍّ فى قلوب جمهور المسلمين، فزيارة الحائرِ (قبر الحسين فى كَربَلاء) لها موسم ينطلق الناس فيه أفواجًا، وجرايتهم فى أموال أتباعهم ثابتة كالفرض، أوْ هِيَ فَرْض، على أن أخلاقَهم ونبلَهم وترفُّعَهم عن شهوة الانتقام من خصومهم وتنزيه ألسنتهم عن هُجْرِ القول، وحرص عامة المسلمين أدلة كثيرة لانتشاره فى أثناء القصص.

أما القصص التعليمية، فإنها تكون عادة واضحة التلفيق، وهى لا تعبأ بغير ما وُضِعَتْ له، وهو تفسير مناسبة أبيات، أو شرح حكمة، أو خطبة... إلخ. وتُضَحَّى القصةُ التعليمية بالجوانب الفنية إلا نادرًا، وسنجد قصصًا لشرح مسائل فقهية، عن زكاة المال، وحُرْمة عروض التجارة، وحق ابن الرقيق فى وراثة أمه الحرة (القسم الثانى -الفصل الأول- رقم ٤).

وقصصًا لشرح أبيات، ومن هذا النوع نجد قصة واحدة طريفة، سنتوقف عندها فى الفقرة التالية وهى قصة «سبع صنايع» (القسم الثانى -الفصل الأول- القصة رقم ١٦).

هذه -باختصار- مجالات الاهتمام الأساسية التى تحرك بين أقطارها القاضى التَّنُوخِى، وهناك محاور غيرها، كالقصص التى هدفت إلى تصوير أساليب علاج الأمراض المختلفة، والقصص التى صوَّرت الأثر السيئ لحياة الجنود المرتزِقة -التُرْك بخاصة- فى بغداد وما أنزلوه بأهلها من مظالم واعتداء على الحُرُمات، ولن يكون هذا التعريف مغنيًا عن قراءة مفصَّلة تكون أكثر وفاءً للدَّلالة على آفاق المعرفة، وأنواع الخبرات، التى استمد منها القاضى التَّنُوخِى، مادة كتابه «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة».